

## فن السخرية في الرسالة الهزلية لابن زيدون: دراسة بلاغية

هدى محمد إبراهيم قزع

محاضر متفرغ براتب أستاذ مساعد (الأدب العربي القديم ونقده)، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الجامعة الهاشمية،  
الأردن

(قدم للنشر في ١٩ / ٤ / ١٤٤٤هـ، وقبل للنشر في ٢ / ٧ / ١٤٤٤هـ)

**الكلمات المفتاحية:** الرسالة الأدبية، الأدب العربي القديم، ابن زيدون، فن السخرية، البلاغة.  
**ملخص البحث:** يعني هذا البحث بدراسة فن السخرية في الرسالة الهزلية، ويقف على أبرز أساليب السخرية فيها ويدرسها دراسة بلاغية. كما يحاول بيان صلة ابن زيدون بالنشر، ويقف على أسلوب الاستهلال في الرسالة الهزلية، الذي يخالف فيه ابن زيدون النمط العام للرسائل. ثم يبين أبرز الجوانب البلاغية المتبعة بالسخرية في هذه الرسالة ويربطها بعلوم البلاغة الأساسية، من علم بيان ومعان وبدیع، فيأتي على بيان صلة السخرية بالصورة الأدبية من تشبيه واستعارة وكناية، كما يوضح ما يتصل بعلم المعاني من استفهام ساخر، وأسلوب قصر، وأسلوب قسم. كما أولى البحث عناية بدراسة أساليب السخرية في علم البديع من اقتباس وتضمين، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، والجناس، والطباق، والسجع ودورها في السخرية. وحاول إحصاء فنون البلاغة الساخرة، وإظهار أي الفنون الساخرة توفرت أكثر من غيرها، كما بين أبرز ما تميزت فيه سخرية ابن زيدون عن غيره من الأدباء، وأثر شخصيته فيها قدمه من أوصاف في الرسالة الهزلية.

## The Art of Irony in Ibn Zaydun's Al-Risaalah Al-Hazaliyyah (Comic Letter): A Rhetorical Study

**Huda Muhammad Qazaa**

*Full-time lecturer with Assistant Professor Rank (Ancient Arabic Literature and its Criticism), Faculty of Arts, Department of Arabic Language, The Hashemite University, Jordan*

(Received: 19/ 4/1444 H, Accepted for publication 2/ 7/1444 H)

**Keywords:** the literary letter, ancient Arabic literature, Ibn Zaydun, art of irony, rhetoric.

**Abstract.** This research is concerned with the art and most prominent techniques of irony in the Al-Risaalah Al-Hazaliyyah (comic letter) from a rhetorical perspective. It also tries to demonstrate the relationships between Ibn Zaydun's work and prose, and explore the technique of prefacing in the comic letter, in which Ibn Zaydun diverges from the general style of letters. Then, it shows the most prominent rhetorical ways used in irony in this letter and links them to the fundamentals of rhetoric (eloquence, meanings, and aesthetics), linking irony to literary image including simile, metaphor, and metonymy, and to the branch of rhetoric (meanings) including ironic questions and exclusivity and swearing-to-Allah styles. The research also paid attention to the methods of irony to rhetorical aesthetics including quoting, and citing, and using slander praise-like manner, alliteration, antithesis, and rhyming, as well as their role in irony. Finally, the it also tried to enumerate the rhetoric, ironic arts and show which has been more frequent, and to show the most prominent features of Ibn Zaydun's irony in comparison to others and the impact of his personality in the descriptions he presented in the comic letter.

**السخرية:**

السخرية في اللغة هي الاستهزاء والضحك (ابن منظور، مادة سخر)، أما في الاصطلاح فهي:

" طريقة في الكلام يعبر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل ". (وهبة، والمهندس ١٩٨٤، ص ١٩٨)

ويرى بعض الدراسين أن السخرية منهج جلي يعتمد على الاستفهام بمفهومه البلاغي، وأنها أسلوب في تعليم المعارف. (علوش، ١٩٨٥، ص ١١٠).

وقد انتهج ابن زيدون في رسالته الهزلية عدة أساليب بلاغية للتعبير عن معانيه وصوره الساخرة، مما دفع بعض الدراسين لتناول السخرية عنده، كدراسة " الرسالة الهزلية: قراءة في الوجه الآخر لابن زيدون " (أدي ولد آب، ٢٠٠٩م، ص ٣٩\_٥١)، التي حاول فيها تحليل الرسالة الهزلية متبعاً منهج التأويل، ومؤكداً على الجانب النفسي المتجلي فيها بما يضيفي صدق التجربة، إضافة إلى رصد بعض الظواهر الفنية فيها.

ودراسة "تقاطعات البنى السردية في الرسالة الهزلية لابن زيدون" (العلي، ٢٠١٥، ص ٣٧٣\_٤٠٥) وفيها أكدت الباحثة أن الرسالة الهزلية تفتح على عوالم سردية متعددة المستويات، تتوازي فيها أزمته وأمكنة شتى، وقد حاولت استنطاق النص السردى بصوته الأنثوي وتفكيك بنيته للكشف عن مكنوناته، ومقارنته بفهم جديد لبيان تعالق الأدب الأندلسي مع نظيره المشرقي بعيداً عن مقولات التبعية والاستنساخ.

ودراسة الرسالة الهزلية وسؤال السخرية، (عطية، ٢٠١٨، ص ٣٩\_٥١)، وفيها بينت الباحثة أن ابن زيدون عرض في رسالته موضوعات جادة في قالب ساخر من خلال المبالغة أو التهويل، أو قلب الحقائق على سبيل التندر، وقد رأت أنه تأثر بفكاهة الجاحظ في رسالة الترييع والتدوير، والمنهج الفكاهة الساخر لأبي إسحاق الصابي.

ولا ريب أن بحثي يلتقي بالاهتمام مع هذه الدراسات بفن السخرية، لكن منهجي المتبع مختلف حيث يركز على الجوانب البلاغية بشكل خاص ويحاول أن يبين أثر هذه الفنون في الإقناع والسخرية.

**ابن زيدون والنثر:**

اشتهر ابن زيدون بالشعر إلا أن نثره كان متميزاً وهذا ما أشار له ابن بسام في ذخيرته وهو يترجم له: " كان أبو الوليد صاحب منشور ومنظوم... ووسع البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفقه... وحظ من النثر غريب المعاني " (الشنتريني، ١٩٩٧، مج ١، ص ٣٣٦)، وقد بين أن رسائله " بالمنظوم أشبه منها بالمشور " (الشنتريني، ١٩٩٧، ص ٣٣٧)؛ لما كان فيها من شعرية عالية، ولما احتوته من تضمين لأبيات شعرية تظهر سعة ثقافته وتمكنه في الشعر العربي.

كما أكد ابن خاقان على تميز ابن زيدون في النثر ومكانته العالية في بلاط بني جهور حيث قال عنه: " زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجمهورية الذي بهر بنظامه، وظهر كالبدر ليلة تمامه، فجاء من القول بسحر... فشراف بضائعه، وأرهف بدائعه وروائعه، وكلفت به تلك الدولة، حتى صار يلهج بلسانها، وحل من عينها مكان إنسانها " (ابن خاقان، ١٩٨٩، ج ٢، ص ٢٠٩).

كما قدمه الكلاعي على أنه ناثر قبل أن يكون شاعراً حيث قال: " كان صاحب منشور ومنظوم وخيمة شعر مخزوم ".

( الكلاعي، ١٩٩٦، ص ٢٥٨)، وعده علي عبد العظيم من " طائفة الكتاب المنشئين الذين تنصرف مواهبهم إلى إتقان وسائل التعبير وصياغة الأساليب اللفظية والمعنوية، وعنايتهم بالصور فوق عنايتهم بالأفكار " (ابن زيدون، ٢٠٠٤، ص ١٠٤) ؛ وذلك لما يظهر في أدبه من عناية وتصرف بفنون القول واتباع للأساليب المختلفة في التعبير.

وولادة هي الكاتبة المفترضة (الضمنية) التي تقمص ابن زيدون شخصيتها وأرادها أن تكتب ذلك، وابن عبدوس هو المرسل إليه.

إن ابن زيدون لم يلتزم بالاستهلال النمطي للرسالة حيث كانت مقدمته بتراء لا بسملة فيها ولا حمد ولا صلاة مع أنه فقيه، وهو بهذا يمهد للقارئ كي يقرأ الرسالة بأسلوب مختلف، استهله بفصل الخطاب "أما بعد"، وقد خلت من الدعاء والمقدمات، وبدأها مباشرة بهجاء ابن عبدوس "أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، العاثر في ذيل اغتراره" (ابن زيدون، ٢٠٠٤، ص ٦٦٣) مما يظهر تحفنه من بعض تقاليد بدايات الرسائل، لكنه حافظ على الإطار العام للرسالة.

والاستهلال لا نبالغ إن قلنا إنه أحد أركان البلاغة، ويمكن أن يكون دالاً على المعنى المراد (ابن الأثير، د.ت، ص ٩٦) فابن زيدون قصد أن يستهل رسالته بهذه الصورة لجلب انتباه المتلقي والمبالغة بالسخرية من ابن عبدوس. وإشارات البلاغيين العرب القدامى وكذلك النقاد إلى الاهتمام بالاستهلال كثيرة. (الجاحظ، ط ٥، ج ١، ص ١٢٥، أبو المظفر، ١٩٦٠، ص ٢٨٥).

والاستهلال ملمح أسلوبى مهم وله علاقة وثيقة بأجزاء الرسالة التي غرضها الأساسي السخرية؛ لذلك يعده بارت عنصرًا لتوليد الأسئلة داخل النص، وهو الموجد في الآن ذاته لحلها (هوكز، ١٩٨٦م، ص ١٠٦-١٠٧)، فمن يحسن الاستهلال يحسن نسيج خطابه الأدبي الثري الذي يوجهه لمتلق أو قارئ غالبًا ما يكون متشوقًا لمعرفة الكاتب وغرض النص، فهل كشف ابن زيدون عن ذلك في استهلال الرسالة؟ إن الهدف المعلن لإنشاء هذه الرسالة، هو أن ابن عبدوس أرسل امرأة من جهته إلى ولادة بنت المستكفي تستميلها إليه، وتذكر محاسنه ومناقبه، وتطلب إليها وصاله، فردت عليه ردًا قاسيًا فيه من السب والشتم والهجاء له ولسفيرته، وفي مقابل

ووصفه مصطفى الشكعة بأنه "فنان أعد نفسه لامتلاك ناصية فن النثر إعدادها لامتلاك مجامع فن الشعر" (الشكعة، ١٩٧٥، ص ٧٥) ولا تكاد دراسة حول نثر ابن زيدون تخلو من الإشادة بتميزه فنيًا بالنثر.

### الرسالة الهزلية:

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولادة ردًا على غريمه الوزير ابن عبدوس، الذي كان يكن له مشاعر البغض والكره بسبب منافسته له بحب ولادة "فهده تفكيره إلى أن يكتب رسالته هذه إليه على لسان ولادة نفسها حتى يقطع الطريق عليه في صلته بها، وحتى يكون النيل منه أعمق جرحًا" (الشكعة، ١٩٧٥، ص ٥٩٥). ومما أثار غضب ابن زيدون وغيرته الشديدة على ولادة أن ابن عبدوس في أول عهده بولادة كان يرسل إليها امرأة تستميلها إليه.

الأمر الذي دفع ابن زيدون لكتابة الرسالة الساخرة بحق ابن عبدوس، والتي تعد من أشهر الرسائل الأندلسية في موضوع السخرية التهكمية.

### الاستهلال:

إن ما يستهمل به الأدباء أعمالهم الأدبية ومنها الرسالة يعد سمة أسلوبية لها أثرها على القارئ ومنذ القدم اهتم العرب بما يسمى "بحسن الاستهلال"، ذلك أن "الفاتحة النصية تمثل لحظة بدء الاتصال بين قطبي الإبلاغ: المرسل والمرسل إليه" (لنجو، ١٩٩٩، ص ٣٧).

ونحن أمام عمل أدبي له تأثيره على المستوى النفسي الاستقبالي مما يحتم علينا ضرورة التوقف على الأسلوب الأدبي الذي انتهجه ابن زيدون من خلال تحليل أركان الموقف الاتصالي اللغوي من مرسل ورسالة ومستقبل. فالكاتب الحقيقي (المرسل) لهذه الرسالة هو ابن زيدون والمتحدث عنه المرأة الوسيطة بين ابن عبدوس وولادة.

يعد التشبيه من وسائل الإيضاح التي تهدف إلى زيادة التأثير في النفس وترسيخ المعاني فيها، إذ يعقد مقارنة بين أمرين أو أكثر يشتركان بصفة أو أكثر بقصد إبراز هذه الصفة في أحدهما، فإذا كان ذمًا جاء مؤثرًا موجعًا يبرز عيوب المهجو ويصورها واضحة للعيان فتكون الصورة أبلغ في الذم وأكثر تأثيرًا في الخصم (ساعي، ١٩٨٤، ص ٤٥) لذلك يقول الزمخشري عن التشبيه في حالة الذم "فيه تبيكت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي" (الزمخشري، د.ت، ج ١، ص ٣٧).

والعرب استعملوا تشبيهات عديدة في حال الذم فإذا أرادوا ذم أحد أو التهكم به شبهوه بها، ولا ينصرف الذهن عند إطلاق هذه التشبيهات إلا إلى تلك المعاني المشتهرة المتعارف عليها... كما أن هناك أشخاصًا اشتهروا بخلال ذميمة وخصال قبيحة، فشبّه بهم في حال الذم والتهكم: كباقل في العي، وهبنقة في الحمق (العسكري، ١٩٨٩، ص ٢٦٥). ومعنى التمليح والتهكم في الاصطلاح: "إطلاق اللفظ الدال على وصف شريف على ضده، كإطلاق الكريم على البخيل، والأسد على الجبان" (الجندي، ١٩٥٢، ص ١٠٤).

وقد يقوم التصوير الساخر على تكبير جوانب الضعف أو القبح في شيء ما، فيبالغ فيها بقصد استغلال الطبيعة في بيان عنصر التشويه فتكون باعثًا على الضحك في الوقت الذي تؤدي فيه غرضًا اجتماعيًا أو إنسانيًا كما في فن الرسم الساخر (الكاريكاتير). " (الهول، ١٩٨٢، ص ١٨)، وقد استعان ابن زيدون في رسالته الهزلية في عدة مواطن بفن التشبيه الساخر ومنه:

اختياره للبيت الشعري الآتي:

من تلق منهم تقل لاقيت سيلهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

(ابن زيدون، ٢٠٠٤، ص ٦٨٠).

ذلك أعلنت من قدرها وتباهت بحسنها ورفعته حسبها ونسبها، وطلبت منه مهددة ألا يتناول عليها وأن يلزم نفسها قدرها.

ولا ريب أن رسالة ابن زيدون هي وحدة نصية متكاملة لا يمكن فصل أجزاءها عن بعضها ولعل اشتغال الاستهلال على جملة من المقومات التي تدور في فلك السخرية والتهكم يؤكد هذا، حيث بدأت الرسالة الهزلية بأسلوب النداء دون بسملة أو دعاء، وكان النداء للمهجو دون ذكر اسمه، وهذا ينسجم مع مبتغاه بالسخرية من ابن عبدوس حيث أن موضوع السخرية لا يحتل المقدمات المعهودة، وكذلك هذا المهجو لم يحتل مكانة في نفس ابن زيدون وبالتالي قصد عدم ذكر اسم المهجو ولم يخاطبه مباشرة على لسانه وإنما على لسان غيره، وفي هذا تعبير أعمق عن الهجاء وما كان يضمه من غيرة شديدة اتجاه غريمه.

الأمر الذي جعل الرسالة الهزلية تبدو وكأنها تتخذ ما يسمى بالنمط الدائري حيث بدأها بالهجاء وختمها كذلك ببيت هجاء دون ذكر المهجو، وذلك حتى يؤكد غرور غريمه الذي دفعه أن يظن بأن له مكانة رفيعة تؤهله لحب ولادة، من أجل ذلك ظل يصفه بالجهل وعدم المعرفة والغرور.

وقد اتبع ابن زيدون عدة أساليب بلاغية في رسالته الهزلية لتمثل معاني السخرية بطريقة أدبية وجمالية استعان فيها بالموروث الأدبي القديم بما يظهر سعة ثقافته، وتميز لغته. وسنحاول أن نقف على أبرز الأساليب التي وظفها من أجل خدمة غرضه الأساسي من الرسالة وهو السخرية بابن عبدوس وجعله يحيد عن التفكير بولادة.

وفي المقابل سنجده يحرص على بيان تميزه وتمكنه لغويًا وفكريًا، بما يؤكد أنه هو الأخرى بحب ولادة.

## أساليب السخرية البيانية في الرسالة الهزلية:

### ١. التشبيه الساخر:

"حتى إن باقلاً موصوف بالبلاغة إذا قرن بك"، ليؤكد جهله وعدم بلاغته، "وهبنقة مستحق لاسم العقل إذا نسب إليك"، و "أبو غبشان محمود منه سداد الفعل إذا أضيف إليك" ليؤكد صفة حمق غريمه، و "وطويسا مأثور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك" (ابن زيدون، ص627) ليثبت أنه مصدر للتشاؤم.

كما حاول ابن زيدون أن يؤكد جهل غريمه بنفسه حينما استحضر قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز في القرآن الكريم ليدلل على توهمه بصفة الجمال وهو في نظره ليس كذلك، حيث قال:

"حتى خيلت أن يوسف عليه السلام \_حاسنك فغضضت منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنك" (ابن زيدون، ص66٤).

ومادل على المشابهة ضمناً:

وتمثلت:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان

(ابن زيدون، ص6٧٧)

فالفعل تمثلت يعني التقارب والتشابه، فهو يرى استحالة التقاء غريمه ابن عبدوس بولادة كاستحالة التقاء الثريا بسهيل.

وكل هذا له أثر نفسي على غريمه الذي يحاول أن يستصغره ويحتقره ويقلل من شأنه حتى يجعله يبتعد عن التفكير بولادة.

## ٢. الاستعارة الساخرة:

قسم البلاغيون الاستعارة إلى أقسام عدة باعتبار الطرفين، وباعتبار الجامع، وباعتبار الثلاثة، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله.

والذي حاول فيه أن يعقد مقارنة بين صفات غريمه ابن عبدوس وبين قومه الذي يتتمي إليهم، الذي رأى أنهم يشبهون النجوم في علوهم ورفعتهم، وقد قصد في هذا الفخر بنفسه وقومه، الذين أثبت لهم السيادة، وكل ذلك يجعله الأجدر بحب ولادة من غريمه.

ومن التشبيه قوله:

" ما أنت وهم ؟ وأين تقع منهم ؟ وهل أنت إلا واو عمرو وفيهم ؟" ( ابن زيدون، ٢٠٠٤، ص٦٨٠\_٦٨١)، الذي رأى فيه أن غريمه مثل الواو التي تلحق في الكتابة باسم عمرو وليست من حروفه، ليدل على عدم أهميته.

وقوله: "وكالوشيفة في العظم بينهم" ( ابن زيدون، ٢٠٠٤، ص٦٨١)، الذي يشبه فيه غريمه بقطعة عظم زائدة في العظم الأصلي، حتى يظهر أنه جزء غير أساسي يمكن التخلي عنه.

ومنه قوله: "الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب" ( ابن زيدون، ص٦٦٣)، حيث شبه تهافت منافسه على ولادة كتهافت الفراش على الشهاب، والفراش يجب النور ويلتف حوله وكذلك الحال بالنسبة لغريمه فهو يحاول التقرب من ولادة ويسعى لكسب رضاها دون تحقيق المراد، وهو بذلك قارن بين غريمه وبين الفراش والذباب، ورأى أنهم يشتركون في صفة التهافت.

وبذلك أجاد بوصف الضياع والهلاك الذي وقع به غريمه حينما ظن أن القرب من ولادة أمر ممكن.

وكثيراً ما كان ابن زيدون يحاول سلب الصفات الإيجابية من غريمه من خلال استحضار شخصيات عرفت في العقل الجمعي بصفات السلبية فيقارنه بهم، وفي ذلك مبالغة في الذم والتهمك والسخرية ومنه قوله:

ليمنعه من أداء الرسالة فما كان إلا أن قرر محاربة النبي محمد \_ صلى الله عليه وسلم \_ فعاقبه الله بالمرض في بيت امرأة سلولية قبل موته.

### ٣. الكناية الساخرة:

تعرف الكناية على أنها لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته كقولك: فلان طويل النجاد، أي طويل القامة. إذ يقول عبد القاهر الجرجاني " والمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه" (الجرجاني، ط ٢، د.ت، ٦٦).

وقد ذكر البلاغيون أنه لا يصار إلى الكناية والتعريض إلا لغرض يقصده المتكلم، يرى أن الكناية عنه والتعريض به أولى من التصريح، يقول ابن الناظم: " ولا يترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي نكتة كالإيضاح، أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح أو الذم، أو الاختصار، أو الصيانة، أو التعمية والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن الفاحش بالظاهر، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن" ( ابن الناظم، ص ١٤٧)، وذكر ابن معصوم ستة من الأسباب التي يعدل لأجلها من التصريح إلى الكناية وجعل منها قصد الذم (ابن معصوم، ط ١، ج ٥، ص ٣١١).

ومن فوائد الكناية وأغراضها التحرز عن ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة، وإبدال ما يفحش ذكره في الأسجاع بما لا تنبو عنه الطباع، ومن الكنايات الساخرة ما جرى مجرى الأمثال، وهذا كثير جار في كلام العرب "وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات (الجرجاني، ١٣٢٦هـ، ص ٣).

وهي تنقسم باعتبار الطرفين إلى قسمين، لأن اجتماع هذين الطرفين في شيء إما ممكن فهي وفاقية، أو ممتنع فهي حينئذ تسمى عنادية.

ومن العنادية ما استعمل في ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تهكم أو تمليح) الصعيدي، ط ١٧، ج ٣، ص ١٢١\_١٢٢).

ومن الاستعارة قوله: "العائر في ذيل اغتراره" (ابن زيدون، ص ٦٦٣)، فهو يشبه غريمه بفتاة تعثرت بذيل ثوبها تيتها من باب الاستعارة المكنية، ليؤكد على أن غريمه ابن عبدوس مصاب بالعجب والتيه والغرور، ويلصق به كل ما يدعو للتفسير منه.

ومن الاستعارات التشخيصية قوله: "والعجب أكذب" التي يؤكد فيها غرور غريمه، ويقدم له فيها رسالة بضرورة البعد عن التعجب، لأنه يؤدي إلى الهلاك بصاحبه كما الكذب.

ومن الاستعارات قوله: "قرعت دونه أنوف أشكالك"، و"يركب الصعب من لا ذلول له"، و"يحن قدح ليس منها"، و"اشترت العافية لك بالعافية منك".

وفيها يؤكد أن ابن عبدوس ليس أهلاً لحب ولادة، وأن من أحبها ليست سلعة تباع وتشترى ليظن أنه بإمكانه التمكن من قلبها وتحقيق مراده.

وقد تميز ابن زيدون بما يسمى بالاستعارة التمثيلية حيث يقول في إحدى استعاراته: "وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة... وهل يجتمع لي فيك إلا الحشف وسوء الكيلة، ويقترن علي بك إلا الغدة والموت في بيت سلولية" (ابن زيدون، ص ٦٨٣).

حيث ظهرت الاستعارة في استخدام المثل "الحشف وسوء الكيلة، الموت في بيت سلولية"، حيث وظفه للدلالة على الذل والهوان فهو يشبه حال ابن عبدوس بعامر بن الطفيل الذي ذهب إلى النبي محمد \_ صلى الله عليه وسلم \_

وهي: الإنكار، والتهكم، والتحقير (القرزويني، ط٣، ج٣، ص٧٢).

وقد وظف ابن زيدون على لسان ولادة الاستفهام الساخر ليثبت لغريمه صفتي اللؤم والضعف، واللؤم اسم يجمع كل الخصال المذمومة، فقال:

"كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء؟ وضعتك لشرفي وفاء" (ابن زيدون، ص٦٧٦)، وهنا خرج الاستفهام في دلالته إلى الاستنكار من ابن عبدوس الذي لا يستطيع تقدير الأمور ووضعها في صورتها الصحيحة.

ويبدو أن لقاء ابن عبدوس بولادة كان مستحيلاً، لذلك يستفهم ابن زيدون على لسان ولادة:

"وأنتى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها؟ والظير إنما تقع على أمثالها؟" (ابن زيدون، ص٦٧٦).

وهنا خرج الاستفهام إلى معنى التعجب من ابن عبدوس الذي وصل إلى حد كبير من الجهل حينما طمع بحب ولادة وهي لا تشبهه.

ولا يكتفي ابن زيدون بهذا بل يوظف الاستفهام أيضاً للسخرية والتهكم منه حين ادعى رواية الأشعار وحفظ السير والأخبار وهو جاهل فيها، ولعل محاولته في توظيف الموروث الأدبي تؤكد مدى سعة ثقافته ومعرفته بالسير والأخبار على عكس غريمه.

حيث قال: أين ادعاؤك رواية الأشعار؟ وتعاطيك حفظ السير والأخبار؟ (ابن زيدون، ص٦٧٨).

كما لجأ إلى تحقيره عن طريق الاستفهام الساخر على لسان ولادة وذلك حين قال:

وهل فقدت الأرقام فأنكح في جنب؟ أو عضلني همام بن مرة فأقول زوج من عود خير من قعود (ابن زيدون، ص٦٧٩).

والناظر في رسالة ابن زيدون يرى أنه لجأ إلى فن الكناية للسخرية من غريمه بتلطف، وذلك من خلال العدول عن التصريح مباشرة بالصفات السلبية.

ومن الكناية قوله: "الأعمى عن شمس نهاره" (ابن زيدون، ص٦٦٣) للإشارة إلى ضلال ابن عبدوس وحياده عن الصواب، وفي هذه الكناية جانبان: مدح شبيهه بالدم حيث فيه إذلال لغريمه، وإعلاء من شأن ولادة التي رأى أنها شمس النهار.

وابن عبدوس حسب ما يرى ابن زيدون أعمى لا يعرف طريقه، وقد حاد عن الصواب حين تعرض لولادة.

ومن الكناية قوله: "الساقط سقوط الذباب على الشراب" (ابن زيدون، ص٦٦٣) كناية عن ضعفه وخفته، وقوله "المتهافت تهافت الفراش في الشهاب" (ابن زيدون، ص٦٦٣) للدلالة على خفته وطيشه.

كما وظف ابن زيدون الكناية بصورة واضحة حين بين صورة ابن زيدون السلبية وفق رؤية ولادة التي تخالف الصورة الإيجابية التي حاولت المرأة المرسله من قبل ابن عبدوس رسمها له ومن ذلك قوله:

"هجين القذال" (ابن زيدون، ص٦٧٥) كناية عن خيبة الأصل، وقوله: "أرعن السبال" (ابن زيدون، ص٦٧٥)، "وطويل العنق والعلامة" (ابن زيدون، ص٦٧٥)، كناية عن حمقه، وقوله: "سيئ الجابة والسمع" (ابن زيدون، ص٦٧٥) كناية عن سوء سمعته وعدم إدراكه لحقائق الأشياء وجهله الشديد.

### أساليب السخرية في علم المعاني:

#### ١. الاستفهام البلاغي الساخر:

عد القزويني للاستفهام البلاغي عشرة معان يخرج إليها، ثلاثة منها معان يغلب عليها الدلالة على التهكم والسخرية

شككت فيك، ولا سترت أباك، ولا كنتَ إلا ذاك" (ابن زيدون، ص ٦٨٢).

### أساليب السخرية البديعية:

#### ١. الاقتباس والتضمين:

استعان ابن زيدون بآيات القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوي الشريف وكذلك نصوص شعرية وثرية من الأدب العربي القديم؛ لنقل المعاني التي يريد، والتأكيد عليها، وقد أبدع باختيار ما يناسب السياق حيث كان "يتمثل بالأقوال والأمثال أو أي التنزيل الحكيم ويسبك ذلك بقوله ويضفي عليه من شخصيته، وكأن الجميع من صنع يديه" (السيوفي، ٢٠٠٨، ص ٤٤٥\_٣٩\_٤٠) ومن يقرأ الرسالة الهزلية يلاحظ سعة ثقافته، وقدرته على تمثيل النصوص الأدبية على اختلافها دون أي تكلف، ولعل ورود العديد من الاقتباسات والتضمينات في هذه الرسالة دعا إلى شرحها، فهو يبدو أنه: "يؤلف متنا من المتون، فالإنسان لا يخلص من معرفة شخص ممن يشير إليهم، حتى يقع في مثل أو حادثة أو في بيت شعر يحتاج إلى فضل من الشرح، ولهذا كله عمد ابن نباتة إلى شرح الرسالة " (ضيف، ١٩٥٩، ص ٤٥).

وسنأتي الآن إلى بيان مواطن الاقتباس والتضمين، ونحاول بيان دورها في تمثيل معاني السخرية:

#### أ. الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

لجأ ابن زيدون إلى الاقتباس من آيات القرآن الكريم وهو يسخر من ابن عبدوس، محاولاً الاستفادة من الآيات التي كان فيها تهديد ووعد، ومن ذلك قوله:

"أولى لك" (ابن زيدون، ص ٦٧٧) مهدداً ومتوعداً ابن عبدوس بالدعاء عليه بالشر والهلاك، لعله يندم على تفكيره بحب ولادة، ويجيد عن غوره.

فولادة لن ترضى بالزواج من غريمه مهما بلغ بها الأمر، وتصر على رفع قدرها وحط قدره، لتبين أنها لن تعبأ بكلامه ولا كلام المرأة التي أرسلها إليها ليستميل مشاعرها.

#### ٢. أسلوب القصر:

من الأساليب المتبعة عند الكتاب وهو " تخصيص أحد بآخر بطريق مخصوص أو هو إثبات الحكم لما يذكر في الكلام ونفيه عما عداه"، ومن طرقة " النفي والاستثناء مع إنما ونحو، والعطف بلا ولو ولكن، وتقديم ما حقه التأخير" ( الهاشمي، ص ١٦٥\_١٦٦) وقد استعان ابن زيدون بأسلوب القصر لتأكيد المعاني حيث قال:

" وأن مالك بن نويرة إنما ردف لك، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك... وعمرو بن الأهمم إنما سحر ببيانك" (ابن زيدون، ص ٦٦٥\_٦٦٦). وكذلك من أجل السخرية من غريمه، حيث نسب إليه صفات ليست فيه وبعيدة عنه، مما دل على سعة ثقافته مقابل ضعف غريمه وجهله.

وقد وظف تركيباً بدا ثابتاً في الرسالة وهو: (الاسم وإنما ثم الفعل ثم الجار والمجرور) للتأكيد على كل المعاني التي تقلل من شأن غريمه، وذلك من خلال سلب كل الصفات الإيجابية الممكنة عنه.

#### ٣. أسلوب القسم:

لجأ ابن زيدون إلى أسلوب القسم وهو من الأساليب الإنشائية غير الطلبية، وذلك بغرض تأكيد المعنى في ذهن المتلقي، حيث خاطب غريمه مستعيناً بهذا الأسلوب الذي جاء بأداة القسم: الواو، ثم المقسم به: لفظ الجلالة (الله)، ثم جملة جواب القسم بما يؤكد سخريته من ابن عبدوس حيث قال:

"والله لو كسك محرق البردين، وحلتك مارية بالقرطين، وقلدك عمرو الصمصامة، وحملك الحارث على النعامة، ما

ومنه قوله: " ذلك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك" (ابن زيدون، ص ٦٨٥) الذي اقتبسه من قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة الحج، آية رقم ١٠)، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة الحشر، آية رقم ١٥).

وهو بذلك يسخر منه ويحملة نتيجة ما وصل إليه، ويدعو إلى الندم ولوم نفسه بالدرجة الأولى لأنه أخطأ التقدير حين فكر بحب ولادة وهو لا يستحقها، وقد وفق بالتناص مع الآيات القرآنية التي حذرت من العذاب، ودعت إلى الحرص على الأفعال.

ومنه قوله: "وقلت: الخبيث والطيب لا يستويان" (ابن زيدون، ص ٦٧٧). الذي اقتبسه من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة المائدة، آية رقم ١٠٠). وهو بذلك يعقد موازنة بينه وبين غريمه، ويرى أن طيبته لا تماثل خبث ابن عبدوس ولؤمه، وأن ولادة تستحق الطيب من القول والفعل.

ومنه قوله: "ولولا أن جرح العجاء جبار" (ابن زيدون، ص ٦٧٧) الذي اقتبسه من الحديث النبوي الشريف الآتي: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ. وَالْبَيْرُ جُبَارٌ. وَالْمُعْدِنُ جُبَارٌ. وَفِي الرِّكَازِ الْحُمْسُ". (البخاري، ١٤٢٢هـ، ج ٢، ص ١٣٠)، وفي ذلك استهانة بغريمه، حيث رأى أنه لا يعقل ولا يفهم حين أرسل إلى ولادة امرأة، مثل البهيمة التي لا قصاص فيها لأنها لا تعقل.

وفي ذلك اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُ (٣٣) أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٤) ﴿ (سورة القيامة).

وقوله أيضًا: "الأعمى عن شمس نهاره" (ابن زيدون، ص ٣٦٣) وفي ذلك اقتباس من قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، آية رقم ٤٦). فالعمى الحقيقي ليس هو عمى البصر وإنما عمى البصيرة، وهذا ما أراد أن يؤكد من خلال استخدام النص القرآن المنسجم مع ما أراد أن يثبت من عمى غريمه ببصيرته. ومنه قوله: وقلت الخبيث والطيب لا يستويان (ابن زيدون، ص ٦٧٧) وفي ذلك اقتباس من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة المائدة، آية رقم ١٠٠). وهنا أراد أن ينبه غريمه أنه لا يمكن أن يلتقي بولادة، ويدعو ضمناً إلى الابتعاد عنها.

كما نجد تناصاً آخر في قوله: "حتى خلت أن يوسف عليه السلام حاسنك، فعففت منه وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه" (ابن زيدون، ص ٦٦٤). فقد استشهد بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة يوسف، آية رقم ٥١).

فهو يريد أن يدل على صفة جمال ابن عبدوس ليسلبها منه، وذلك من خلال ذكر جمال سيدنا يوسف عليه السلام، وهذا من باب التهكم به لأنه كان يغتر بحسنه وجماله.

**ب. التضمين الشعري:**

والذي جاء معرضًا بابن عبدوس الذي حاد عن سماع  
النصيحة التي دعت له لترك ولادة لأنه لا يستحقها.

وهو مأخوذ من قول دريد بن الصمة:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَكَئِنْ لَا حَيَاةَ لَكِنْ تُنَادِي

واستعان ابن زيدون بأبيات تظهر بغض ولادة لابن

عبدوس ومن ذلك:

مساوٍ لو قُسمنَ على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق

(ابن زيدون، ص ٦٧٥)

المأخوذ من أبيات لأي تمام.

وقصد من هذا التضمين أن صفات ابن عبدوس لو

تقسمت على الغواني وهن النساء اللواتي غنبن بأزواجهن لم

يعطهن الأزواج مهرًا غير الطلاق بغضًا فيهن وراحة منهن لما

اكتسبن من المساوئ والقبائح.

وفي ذلك تأكيد على قبح صفات ابن عبدوس، وعدم

قبولها عند ولادة.

وابن عبدوس لم يكن يدرك قيمته ومكانته في نفس

ولادة، واغتر بنفسه ولم يعرف قدرها لذلك لم يأت اختيار ابن

زيدون لبيت المتنبي في هجاء كافور عبثًا وإنما ليؤكد جهل

غريمه بنفسه، ومعرفة الناس لحقيقته التي لا يعرفها ولم ينتبه

لها:

وَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

(ابن زيدون، ص ٦٨٦).

**ج. تضمين الأمثال:**

من الملاحظ أن ابن زيدون ضمن في نصه العديد من

الأمثال العربية، التي جاءت منسجمة مع المعاني التي أرادها،

حيث يشعر المتلقي أن " بعض الفقر تبني أسلوبياً على الأمثال

وحدها" (سليمان، ٢٠٠٧، ص ٤٢١).

ويبدو أنه قصد هذا ليعبر عن صفات غريمه السلبية

وقبح سيرته ومنه: " وهل يجتمع لي فيك إلا الحشف وسوء

ليس غريبًا أن يوظف الشعر في النثر، لكن حين يكون

هذا التوظيف من كاتب له صلة بالشعر القديم، ولديه موهبة

شعرية شهد عليها النقاد يأتي أشد أثرًا وأكثر قدرة على الإقناع

وإيصال المعنى، لأنه يأتي من خبرة ومراس، لذلك نجده

يضمن عددًا من الأبيات الشعرية في رسالته للسخرية من ابن

عبدوس:

ومن ذلك تضمينه لعدد من الأبيات الشعرية في سبيل

رسم صورة سلبية لغريمه، التي جاءت على لسان ولادة التي

عيرته بجهله حين ظن أنها يمكن أن تفكر فيه.

وقد أصاب غريمه الغرور الشديد حين ظن أنه يمتلك

فضائل كابن زيدون، لكن ولادة لا يمكنها أن تتجه إلى حب

ابن عبدوس وقد عيرته أنه متزوج غير أعزب وسخرت منه.

وذلك في قوله على لسان ولادة: " أُلست تأوي إلى بيت

قعيدته لكاع" (ابن زيدون، ص ٦٨٣)

المأخوذ من قول الحطيئة في هجاء زوجته:

أَطَوَّفَ مَا أُتَوَّفُ ثُمَّ أَوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتُهُ لِكَاعِ

وقوله أيضًا على لسان ولادة:

"وما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد ولا لأمتطي الثور

بعد الجواد". (ابن زيدون، ص ٦٨٠)

بما يظهر مقارنتها له بفتيان قومها، التي رأت أنهم أولى

بالتقدير منه؛ فهو كالرماد وهم كالمسك بثبات الأثر، وهو

كالثور وهم كالجواد في الأصالة والقوة.

وذلك مأخوذ من قول المتنبي:

وَمَنْ رَكِبَ الثَّورَ بَعْدَ الْجَوَا دِ أَنْكَرَ أَطْلَافَهُ وَالْغَبَبُ

وقد مثلت بهذا القول عدم حاجتها إليه وأنه استغنت عنه

بما هو خير منه.

ومن التضمين أيضًا قوله:

" وأسمعت لو ناديت حيا" (ابن زيدون، ص ٦٨٤).

## ٢. فن السخرية القائم على المدح:

لجأ ابن زيدون إلى أسلوب تأكيد التهكم بما يشبه المدح، وهو أسلوب المدح المقلوب، الذي نعته نقاد العرب في القرون الوسطى بالقدح عن طريق المدح أو تأكيد الذم بما يشبه المدح، وهنا تكون السخرية غير مباشرة، فيها تلمظ، تطيب له النفس ظناً أنها مدح. (العوي، ١٩٨٩، ص ١٣٠)، و(الهامشي، ٢٠١٧، ص ٣١٣\_٣١٤).

كقوله: "وأن قارون أصاب بعض ما كنتزت...، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك؛ والإسكندر قتل دارا في طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك؛ والضحاك استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك... وجساساً إنما قتله بأنفتك؛ ومهلهاً إنما طلب ثأره بهمتك؛ والسليك بن السليكة إنما عدا على رجليك، وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنه بيديك" (ابن زيدون، ص ٦٦٤).

لقد حاول ابن زيدون بهذا وضع غريمه في مكانة أعلى من الملوك، حيث جعلهم لا يقارنون معه في قدره وحسبه ونسبه وثروته وأدبه وجماله وهذا على سبيل السخرية منه لا المدح.

كما اتجه إلى مدحه على حساب علماء الطب والنبات والفلاسفة حين قال: "وأن هرمس أعطى بليوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطو طاليس ما حدّث عنك... وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة نظرك" (ابن زيدون، ص ٦٦٨).

وهو يسعى بذلك إلى التعريض بغريمه بصورة غير مباشرة عندما ينسب العلوم والمعارف إليه وهو لا يعرف عنها أدنى معرفة، ويجعل أصحابها المعروفين يستشيرونه ويرجعون إليه، وذلك ليؤكد الوهم الذي وقع فيه حين ظن نفسه عالماً.

الكيلة" (ابن زيدون، ص ٦٨٣). وفي هذا رسم لصورة ابن عبدوس على لسان ولادة التي رأت أنه اجتمع فيه سوء المنظر والمخبر.

إن افتخار ابن عبدوس بذاته لا طائل من ورائه لذلك حذره ابن زيدون من التكبر والغرور مستعيناً بالأمثال العربية ومنها: "وهلا عشيت ولم تغتر" (ابن زيدون، ص ٦٧٨)، "جعجعة ولا طحنا" (ابن زيدون، ص ٦٨٥)، "رب صلف تحت الراعدة" (ابن زيدون، ص ٦٨٥).

وأكد له أن إصراره على التكبر والاعتزاز بنفسه وظنه أن ولادة تحبه، سيقوده إلى الهلاك والضرر، حين قال: "ولا تكن يراقش الدالة على أهلها" (ابن زيدون، ص ٦٨٣\_٦٨٤)، "وعنز السوء المستثيرة بظلفها لحنها" "فما أراك إلا قد سقط العشاء بك على سرحان" (ابن زيدون، ص ٦٨٤).

وفي بعض المواطن أتى تضمين الأمثال في الرسالة مرتبطاً بحوادث وحكايات كقوله: "كدمت في غير مكدم، ورضيت من الغنيمة بالإياب، ورجعت بخفي حنين، وزوج من عود خير من قعود" (ابن زيدون، ص ٦٧٨)، "وما أمئك أن تكون وافد البراجم؟" والحررة تجوع ولا تأكل بثديها. (ابن زيدون، ص ٦٧٩).

أو مرتبطاً بخصال محمودة أو مذمومة ارتبطت بشخص بعينه، مثل: وفاء السمؤال، كرم حاتم، سرعة السليك، ودهاء قيس، وفطنة إياس. وعي باقل، غفلة هبنقة (ابن زيدون، ص ٦٦٥\_٦٦٦).

إن ابن زيدون رسم "أنموذجاً أدبياً يدل به على مقدرته واتساع معارفه" (عباس، ١٩٩٧، ص ١٢٤). حيث لم يكن يهيمه أن تصل رسالته إلى غريمه بقدر أن تجد هذه الرسالة طريقها للقراءة بما يمثل أسلوبه الأدبي وطرائق تعبيره المتعددة، وإن كان الهدف منها السخرية.

**٤. الطباق:**

هو لون من ألوان البديع ولا تنحصر قيمته في التعبير عن تضاد الدلالات المفردة مع بعضها، وإنما له دور هام في بيان الجوانب النفسية عند الكاتب (الشحات، ١٩٩٤، ص ٣٦).

ومن الألفاظ المتضادة التي وردت في الرسالة: الصحة والمرض، والأسماء والأفعال، والشرق والغرب، والمؤمن والكافر، والخبيث والطيب، والذهاب والحيث، وأظهر وأضمر، وغدا وأمس، والجوهر والعرض، والجنة والنار، ووصل وقطع.

فابن زيدون من خلال الإتيان بالمتضادات يؤكد سحرته من غريمه الذي وجد أن روحه لا تتقارب مع ولادة وأنها لا يمكن أن تجتمع معها كبعد تقارب تلك المتضادات، وهذا يعبر عما اعتور نفسه من غيرة على محبوبته، ومن كره ابن عبدوس الذي حاول أن ينافسه في حب ولادة وهو ليس أهل لهذه المنافسة.

**٥. السجع:**

السجع لغةً: "من سجع يسجع سجعاً أي: استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً، وأما اصطلاحاً: هو توافق الفواصل في الكلام على حرفٍ واحدٍ (الحنبلي، ٢٠٠٤، ص ٨٥).

وقد بنى ابن زيدون رسالته على السجع حيث توافقت الكلمات في آخر فاصلتها، ونجد ذلك في كل كلمة من الكلمات الأخيرة في الرسالة.

ورغم كثرة استخدام السجع إلا أنه كان يختار الكلمة المناسبة للتعبير عن المعنى بدقة، وهذا دليل على قدرته البيانية، وقدرته على التشكيل اللغوي وهو كان " يلتزم بالسجع التزاماً يكاد يكون مطلقاً " (الشكعة، ١٩٧٩، ص ٥٩٣)

فهو يريد أن يؤكد صفة الجهل لغريمه، بطريقة فيها نوع من السخرية والهزء به وبغروره.

**٣. الجناس:**

وظف ابن زيدون فن الجناس مما أعطى رسالته إيقاعاً يجذب المتلقي لاستكمال القراءة، وعبر عن المعاني المقصودة من خلال الاستعانة بألفاظ وكلمات منسجمة صوتياً، لكنها تؤدي دلالات مختلفة.

ومن مواطن الجناس الواردة في الرسالة:

" قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال" (ابن زيدون، ص ٦٦٤).

فقد جناس بين الألفاظ الآتية: الجمال والكمال والجلال والخلال، ليظهر الصفات الإيجابية التي حاولت وسيطة ابن عبدوس أن ترسمها في ذهن ولادة عن ابن عبدوس، وكلها صفات مزعومة بعيدة عنه.

ومن المواطن الأخرى للجناس: " وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا في طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك، والضحاك استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك" (ابن زيدون، ص ٦٦٤).

وذلك ليسخر من تكبر غريمه وغروره، حيث أحذه عجبه أن يظن نفسه أفضل مكانة من الملوك، وأن الجميع تحت طوعه.

ومنه: "أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلظه" (ابن زيدون، ص ٦٦٣)؛ ليؤكد فيه جهل غريمه الشديد الذي قاده إلى الخطأ حين فكر بحب ولادة.

في حين أنه وظف أسلوب الحصر (١٢) مرة، والملاحظ أنه استخدمه متتابعًا، بتكرار لفظة إنها، قاصدًا إيصال بعض الأفكار لابن عبدوس.

وقد استخدم الاستفهام الساخر (٦) مرات، والاقتراب من القرآن (٦) مرات، و تضمين الشواهد الشعرية (٤) مرات، وتضمين الأمثال (١٧) مرة، و الاستعارة (٧) مرات، وكذلك الكناية (٧) مرات، أما القسم فلم يرد إلا مرة واحدة.

يلاحظ غلبة استخدام فنون البديع من أجل السخرية، حيث إن اللجوء للطباق يؤثر في وضوح المعنى؛ إذ تعرف الأشياء بمتضاداتها، ولعل تركيزه على طباق الإيجاب أكثر لأنه يجد أن غريمه لا يتمتع بالصفات الإيجابية ليسلبها منه باستخدام أدوات النفي، وإنما التضاد وقع في أصل المعنى حيث إن الجهل صفة أساسية في ابن عبدوس.

أما استخدام الجناس فهو يحث القارئ على البحث في اختلاف معاني الكلمات التي بدت ألفاظها متشابهة، إضافة إلى ما يحدثه من تناغم في الإيقاع الموسيقي. أما الاقتباس والتضمين فقد منحنا الكاتب مشروعية للقبول لدى المتلقي لما ثبت في الأدهان من مصداقيتها وأهميتها.

ولعل إكثار ابن زيدون من استخدام فن السجع ينسجم مع رغبته في التأثير النفسي على المتلقي من خلال ما يحدثه من موسيقى داخلية، وقد منحه هذا الفن مساحة واسعة للتعبير عن انفعاله ومعانيه المقصودة، ولا يبعد اهتمامه بالإيقاع عن كونه شاعرًا.

### لكن ما الذي ميز سخرية ابن زيدون عن غيره؟

لقد كان ابن زيدون يميل إلى القص والتنقل في الأصوات السردية فمرة يكون القص على لسان ولادة، أو على لسان

وقد تنوعت صور السجع في الرسالة الهزلية إذ نجد ورود السجع القصير وهو السجع الذي تكون فيه السجعة مؤلفة من ألفاظ قليلة.

كقوله " أيها المصاب بعقله، المورط بجهله.... " ( ابن زيدون، ص ٦٦٣)

كذلك نجد السجع المتوسط وهو الذي يكون عدد كلماته بين السجع الطويل والسجع القصير قوله:

" والله لو كساك محرق البردين، وحلتك مارية بالقرطين " ص ٦٨٢.

" وإن بادرت بالندامة، ورجعت على نفسك بالمامة" ( ابن زيدون، ص ٦٨٥).

وأخيرًا نجد السجع الطويل الذي يكون عدد كلماته أكبر من القصير والمتوسط كقوله: " زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه. ( ص ٦٦٤)

وقوله " وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك" (ص ٦٦٨) وابن زيدون لم يقصد في توافق أواخر الكلمات وسجعها الالتفات للإيقاع الموسيقي فقط بما يجعل التأثير في من يقرأ الرسالة أشد، وإنما كان يهدف لإيصال المعنى من خلال هذا الأسلوب.

بعد تحديد أبرز الفنون البلاغية الساخرة التي وظفها ابن زيدون يبدو من المفيد النظر فيها من حيث عدد ورودها إحصائيًا في الرسالة الهزلية حيث ظهر أن فن التشبيه ورد (٧) مرات، أما فن الطباق فقد وظفه (١٣) مرة واقتصر على نوع واحد منه وهو طباق الإيجاب،

أما الجناس فقد ورد (٤٢) مرة وقد ورد الجناس الناقص أكثر من التام، أما السجع فقد ورد (٧٦) مرة.

وأخبارهم، وأمثال الشعراء وحوادثهم، ومسائل اللغة، وكانت له ثقافة فلسفية " (الركابي، ١٩٧٠، ص ١٦٥).

كما يلاحظ أن شواهد ابن زيدون الشعرية كاملة كانت من شعر المشرق، ولا حضور للشعر الأندلسي فيها، وهذا يؤكد قيمة التراث المشرقي وتأثيره في أدباء الأندلس.

وقد كان جلياً في سخرية ابن زيدون أنها كانت أقرب إلى ما يمكن أن يسمى بلاغة الخفاء حيث أنه لم يتحدث عن ذاته بصورة مباشرة وإنما أغلب حديثه جاء على لسان ولادة.

في الختام لقد تميز ابن زيدون بكتابته النثرية ذات الفيض الشعري، وكمثال حي عليها نجد أن الرسالة الهزلية نثر فيه من الشعر المضمن والشاعرية المكثفة بما يظهر تمكن كاتبها في الأدب وبراعته في استخدام أساليب الخطاب، لا سيما حينما جعل رسالته على لسان غيره أقصد ولادة بما يؤكد سخريته من غريمه ابن عبدوس بصورة ضمنية من خلال عدة أساليب بلاغية تجعل سخريته في رسالته تمتاز ببلاغتها وجمالها الأدبي.

وهو بهذا لم ينفك عن الموروث الأدبي السابق وإنما لجأ له في موضعه بما يبين ثقافته الواسعة وتمكنه من اللغة، كما أنه استعان بفنون البلاغة المختلفة ليوضح المعاني ويرسخها في النفوس، وكثيراً ما حاول سلب الصفات الإيجابية من غريمه من خلال استحضار صفات وشخصيات عرفت بسلبيتها في العقل الجمعي، كما أنه لجأ للتصوير الساخر في أكثر من موضع.

وكثيراً ما كان يوظف الفنون البلاغية ليقدم المعنى بصورة مجازية، ولتكون سخريته أدبية وجمالية، تؤثر بقارئها وتقنعه، وتؤكد تهكمه من غريمه؛ وكثيراً ما ظهر هذا في استعاراته وكنائياته المستخدمة وغيرها من الفنون.

غريمته، أو صوت خفي، في حين أن الناظر في سخرية الأدباء الذين رأى بعض الباحثين أن ابن زيدون تأثر فيهم (القاضي، ١٩٧٥، ص ١٩٣\_١٩٥) يجد أنهم مالوا إلى المنطق أكثر من القص كما هو الحال في المنهج الذي انتهجه الجاحظ المتكلم في رسالة التريب والتدوير.

كما أن ابن زيدون مال إلى التهكم الساخر الذي يقترب من الهجاء، في الوقت الذي قد يكتفي غيره بالسخرية الممزوجة بالإضحاك والفكاهة، وهذا ينسجم مع الحالة النفسية التي عاشها ابن زيدون وغيره الشديدة من منافسة بحب ولادة، والدافع الذي كتب من أجله الرسالة الهزلية.

ويرى صالح بن رمضان أن ابن زيدون استعار " من الجاحظ طريقته في صياغة الذم الذي يشبه المدح، فإن أثارها ببعض الأساليب التي طورها الخوارزمي هذه البنية" (ابن رمضان، ٢٠٠١م، ص ٤٤٤)، وهو يقصد رسالة الخوارزمي في هجاء الشاعر البديهي ولا سيما في قوله: " كأنك علمت حاتم بن عبد الله السخاء والسموأل بن عاد الوفاء، وقيس بن زهير المكر والدهاء" (الخوارزمي، الرسائل، ص ٢٤٣). فابن زيدون صاغها بأسلوب مختلف حيث قال: " والسموأل إنما وفي بعهدك... وحاتماً إنما جاد بوفرك ولقي الأضياف ببشرك " (ابن زيدون، ص ٦٦٥\_٦٦٦).

كما أن ابن زيدون راوح بين الشعر والنثر في رسالته الهزلية ولم يرقم بنسبة الأقوال لأصحابها، ويلاحظ أن التزم بالسجع على طول الرسالة، وأنه نظم إشارات التاريخة واقتباساته وتضميناته بما يوحي للقارئ بإمكانية وضعها ضمن موضوعات في الدين والفلسفة، والعلوم والتاريخ والأدب.

ولا نعجب من تعدد المعارف واستحضارها في الرسالة حيث إن أكثر الذين ترجموا حياة ابن زيدون أكدوا أنه: " كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة، فحفظ كثيراً من آثار الأدباء

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩هـ). (١٩٨٩)، *قلائد العقيان ومحاسن الأعيان*، تحقيق: حسين خريوش. (ط١). الأردن: مكتبة المنار.

الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس (١٩٧٠)، *الرسائل*، تحقيق: نسيب وهيب الخازن، بيروت: منشورات مكتبة الحياة.

الركابي، جودت (١٩٧٠)، *في الأدب الأندلسي*. (ط٣). مصر: دار المعارف، مصر.

ابن رمضان، صالح (٢٠٠١م)، *الرسائل الأدبية*، تونس: جامعة منوبة.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ)، (١٩٩٠)، *البرهان في علوم القرآن*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (ط١). بيروت. دار المعرفة.

الزحشري، جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، (١٩٩٧)، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن*، تحقيق محمد أبو التاويل. (ط١). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن أحمد بن أحمد بن غالب المخزومي (ت ٤٦٣هـ). (٢٠٠٤). *ديوان ابن زيدون ورسائله*، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، تقديم ومراجعة: إحسان النص. (ط٣). الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

ساعي، أحمد بسام. (١٩٨٤)، *الصورة بين البلاغة والنقد*. (ط١). بيروت: دار المنارة.

سليمان، سالم عبد الرزاق. (٢٠٠٧)، *ترسل الشعراء في الأندلس*. (ط١). الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

السيوفي، مصطفى. (٢٠٠٨)، *تاريخ الأدب الأندلسي*. (ط١). القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات.

مصطفى. (٢٠٠٨)، *الأدب الضاحك*. (ط١). القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات.

كما نجد أن دلالات الاستفهام عنده خرجت إلى معان إنشائية غير تقريرية، ولعل اقتباسه وتضمينه للنصوص الأدبية التراثية يشير إلى سعة ثقافته وتمكنه في الأدب. كما أن استعانتة بفنون البديع المختلفة أثرت المعنى وعمقته في نفوس المتلقين، وجعلت الإيقاع أشد تأثيراً في قارئ هذه الرسالة.

### المصادر والمراجع:

ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله الشيباني (ت ٦٣٧هـ). (١٩٣٥)، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة. (ط٢) مصر: القاهرة. دار نهضة مصر.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله (ت ٢٥٦هـ). (١٤٢٢)، *صحيح البخاري*، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. (ط١). بيروت: دار طوق النجاة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الكنايني (ت ٢٥٥هـ). (١٩٦٨)، *البيان والتبيين*، تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت: دار الفكر.

الجرجاني، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٤٨٢هـ). (١٩٠٨)، *المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء*. (ط١). مصر: مطبعة السعادة.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ). (١٩١٢)، *دلائل الإعجاز في علم المعاني*، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاکر. (ط٢). القاهرة: دار الخانجي.

الجندي، علي (١٩٥٢)، *فن التشبيه*. (ط١). القاهرة: مطبعة نهضة مصر.

الحنبلي، مرعي بن يوسف (٢٠٠٤)، *القول البديع في علم البديع*، تحقيق: محمد بن علي الصامل، الرياض: كنوز إشبيلية للنشر.

العوي، رايح محمد. (١٩٨٩)، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب الترييح والتدوير والبخلاء والحيوان. (ط١) دار الكتاب الثقافي.

القاضي، وداد. (١٩٧٥)، بين الجاحظ وابن زيدون، مجلة الكتاب، السنة التاسعة، العددان ١٢١١، تشرين الثاني، كانون الأول، بغداد.

القزويني، جلال الدين محمد بن سعد بن عبد الرحمن (ت٧٣٩هـ)، (١٩٥٣)، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، تحقيق: عبد المنعم خفاجي. (ط٢) القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

الكلاعي، محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي (ت ٥٦٢هـ)، (١٩٩٦)، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية. (ط١). بيروت: دار الثقافة.

لنجو، أدري دي. (١٩٩٩)، في إنشائية الفواتح والخواتم، ترجمة: سعاد بن إدريس نبيغ. مجلة الروافد، ع ١٠، ديسمبر.

ابن معصوم، السيد صدر الدين علي خان المدني (ت١١١٩هـ). (١٩٦٨). أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعرائه: شاكرا هادي. (ط١). العراق: كربلاء، مكتبة العرفان.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (١٤١٤ هـ)، لسان العرب. (ط٣). بيروت: دار صادر.

ابن منقذ، أسامة. (١٩٦٠). البديع في البديع في نقد الشعر، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. (ط١). القاهرة: الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، والإدارة العامة للثقافة.

ابن الناظم، بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ). (١٩٨٩). المصباح في المعاني والبيان والبديع، حققه وشرحه ووضع فهارسه: حسني عبد الجليل يوسف. (ط١). القاهرة: مكتبة الآداب.

الشحات، محمد أبو ستيت. (١٩٩٤)، دراسات منهجية في علم البديع. (ط١). مصر: دار خنای للنشر.

الشكعة، مصطفى. (١٩٧٥)، قراءة مستأنية لشرابن زيدون. مجلة الكتاب، السنة التاسعة، العددان ١١١٢، تشرين الثاني كانون الأول، بغداد.

مصطفى. (١٩٧٥)، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. ط١، بيروت: دار العلم للملايين.

الشتريني، أبو الحسن علي بن بسام (ت٥٤٢هـ). (١٩٩٧)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس. (ط١). بيروت: دار الثقافة.

الصعيدي، عبد المتعال. (١٩٩٧)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. القاهرة: مكتبة الآداب.

ضيف، شوقي. (١٩٥٩)، ابن زيدون، نوايغ الفكر العربي. ط٢. القاهرة: دار المعارف.

عباس، إحسان. (١٩٩٧). تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين. (ط١). عمان: دار الشروق.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت٣٩٥هـ). (١٩٨٩)، الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه د. مفيد قميحة. (ط٢) بيروت: دار الكتب العلمية.

عطية، فاطمة الزهراء (٢٠١٨)، الرسالة الهزلية وسؤال السخرية، مجلة الفضاء المغربي، مج ٢، ع ٤، المغرب: جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

علوش سعيد (١٩٨٥)، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. (ط١)، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

علي، فريال عبد الرحمن (٢٠١٥)، تقاطعات البنى السردية في الرسالة الهزلية لابن زيدون، مجلة العلوم الإنسانية، البحرين، جامعة البحرين، ع ٢٦.

- الهاشمي، أحمد. (٢٠١٧)، *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع*. (ط١). بيروت: المكتبة العصرية.
- هوكز، ترانس. (١٩٨٦)، *النبوية وعلم الإشارة*، ترجمة: مجيد الماشطة. (ط١). بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- الهول، حامد عبده. (١٩٨٢)، *السخرية في أدب المازني*. (ط١). مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ولد أب، آدي (٢٠٠٩م)، *الرسالة الهزلية: قراءة في الوجه الآخر لابن زيدون*، مجلة الفضاء المغربي، المغرب، ع ١٦، مج ٤.
- وهبة، مجدي (١٩٨٤)، *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب*. (ط٢). بيروت: مكتبة لبنان.